المقال الرابع

هل كانت لقدماء المصريين نظريات فى الطب

لقد سبق أن ناقشنا قيمة النظريات ودورها فى تجميع الملاحظات وتبويبها، وفى بناء أرضية ينطلق منها البحث محاولا دعم النظرية أو إفسادها، ويجدر بنا أن نشير هنا إلى حتمية نشأة النظريات وتلقائيتها عند أى تبويب أو عند رسم أية سياسة عمل فى أى نشاط بشرى، إن كان التجارة أو القانون أو الطب.

هل نسج المصريون على هذا المنوال وهل وضعوا نظريات فى الطب.. ؟ ربما يبدو هذا السؤال غريبًا على من اعتاد قراءة القراطيس المصرية، فلقد كان قدماء المصريين فى كتاباتهم بعيدين عن النظريات الفلسفية بقدر ما كان الإغريق مشغوفين بها. ويرجع هذا إلى نزعتهم التجريبية فى ميدان العلوم، التى نأت بهم من جهة عن التعقل المجرد الذى اتصف به الإغريق، والتى منعتهم من جهة أخرى، من الوقوع فى الروحانية التصوفية التى اتسم بها الآسيويون، وإن كانوا قد تعمقوا فى العبادة ونسجوا حول أساطير آلهتهم - روايات لا نهاية لها. ولربما كانت تلك النزعة الواقعية التى تبدو جليًّا فى الصور التى رسموها لآلهتهم - إذ وصفوهم بكل مميزات بنى آدم - فاضلة كانت أم مرذولة - هى السبب فى مجابهتهم المسائل بطريقة عملية، الأمر الذى مكنهم من تحقيق أكثر أحلامهم طموحًا، فشيدوا الأهرام، ورووا الصحارى، وحفروا القنوات بين النيل والبحار، وقادوا جيوشهم إلى حدود العالم المجهول.

ولذا كان من غير المجدى البحث فى مخطوطاتهم عن أبواب أفردت لنظريات منظمة دقيقة أو لشروح مفصلة، على نقيض كتب الإغريق الطبية التى تزخر بالتأملات والاستنتاجات المنطقية إلى درجة تكييف الملاحظات لتلائم نظرياتهم الفلسفية.

obeikandi.com

ومع ذلك فإنه ينبغي لنا أن نحتاط في الاستنتاج من واقع القراطيس المعروفة **لأسباب** عدة :

أولا : أنه لا يمكن النظر إلى القراطيس المعروفة على أنها المؤلفات التي كانت تدرس في مدارس الطب وبيوت الحياة، إذ إنها أشبه بمجموعات من وصفات، تختلف من حيث القيمة، صنفت دون تمييز على قرطاسة واحدة. أما الأصول التي نقلت فربما تكون قد اندثرت مع مر الزمن. بل لعلها لم توجد قط، إذ من المرجح أن كثيرا من العلوم لم يدون. وإنما كان ينتقل شفويًا من الأستاذ إلى تلميذه تحت ستار سميك من تلك السرية التي كانت تكتنف العلم في ذلك الوقت، كما شهد بذلك الكتاب الأولون، وهي السرية التي اتسم بها العلم الإغريقي في زمن فيثاغورس والتي ظلت قائمة حتى عهد أبقراط الذهبي إذ كان تلاميذه يؤدون اليمين التالية :

« وأشرك أولادي، وأولاد المعلم لي، والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وأحلفوا بالناموس الطبي، في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة، وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك ».

والحقيقة أننا مع وجود هذا النقص في كتاباتهم، لا نعقل أن يكونوا قد عكفوا طوال أربعة آلاف سنة على تدوين مشاهداتهم، دون أن يحاولوا تبويبها. ولكل تبويب تفسير يسبقه أو يلحق به تبعًا للون تفكير من قام به.

ونحن نرى أنه يمكن - بتحليل كتاباتهم - استخلاص هذا اللون واستنباط جوهر تفكيرهم في المرض وأسبابه. وهنا تتحتم الحيطة من جديد، لأن أغلب المؤلفات التي بنى عليها المؤرخون آراءهم في الطب الفرعوني - بعد استثناء كتاب الجروح في (قرطاسة أدوين سميث) وأجزاء كبيرة من (قرطاسة إيبرز)، لها طابع سحري ظاهر إن لم يكن كل ما فيها سحرًا وشعوذة.

النظريات العامة للأمراض[١٠]

لقد افترض قدماء المصريين أن لكل مرض [illegible] الجسم يولد حيًا صحيحًا

obeikandl.com

ولا يمرض أو يموت إلا بفعل فاعل دخيل عليه. ولفظ «دخيل» هذا يستعملونه بمعناه الحرفى يقصدون به تسللا ماديًا إلى داخل الجسم.

وقد يكون هذا الدخيل ظاهرًا للعين - كالجروح والحروق والسموم والإفراط فى الأكل إلخ. وفى هذه الحال يسهل عليهم معرفة علته والتخلص منها بالطرق الملائمة، أما إذا كان الدخيل خفيًا، ساروا وفق افتراضاتهم المستمدة من نظرتهم إلى الحياة، كما سار من جاء بعدهم قبل نشأة علمىْ المكروبات والكيمياء الحيوية

الأسباب الخارجية

١ - الهواء :

والهواء أولى العلل التى افترضوها للأمراض. وقد ورد ذكره فى عبارات عدة بمعان مختلفة أتى فى كل منها بمعنى، بحيث كان يحمل مدلولات شتى تشمل الريح، والزفير، والنفث، أى القوى التى تنبثق مع النفس. وهذا التعبير نفسه هو الذى أدى إلى تسمية مرض الملاريا بهذا الاسم، إذ إن هذه اللفظة (Mal aria) معناها «الهواء الفاسد» بعد أن لوحظ انتشار هذه الآفة بالقرب من المستنقعات الراكدة حيث يفسد الهواء.

والمعنى الأول - أى الريح - نجده فى عبارة : «إبعاد ريح طاعون السنة» التى وردت على ظهر (قرطاسة أدوين سميث). وهذا يوحى بأنهم فطنوا إلى أثر الهواء فى نشر الأوبئة وأنهم سبقوا - ولو فى تواضع - مؤلف (أبقراط) عن الأهوية.

والمعنى الثانى قريب من الأول، وهو يوحى بوجود جوهر مرضى فى الهواء المحيط بنا، وهذا المعنى نجده فى العبارة الآتية التى وردت فى كتاب الجروح (بقرطاسة سميث)، «إن لحم المريض التقط هواءً»، وإذا رجعنا إلى لغتنا الشعبية وجدنا أننا نقول إن فلانًا أصابته «لفحة هواء» أو «استهوى» أو «أخذ هواء»، ونحجب الجروح «لئلا تشم الهواء»، ونعتقد أن البطيخ إذا ما شم الهواء فسد.. إلخ.

أما المعنى الثالث فهو أقل واقعية من المعنيين الأولين، بل إنه ملون بالطب الروحانى. ونجده فى الوصفات التى ترمى إلى : «إبعاد ريح شخص حى أو ميت أو

ميته أو عدو أو عدوة أو إله أو إلهة». ولامراء فى أن المقصود هنا هو **النفس أو** النفث. وهذا تعبير روحانى لا يؤدى معنى العدوى بجراثيم النفس. فإن النفس - **فى نظر** الشعب - حامل للروح، وفقدانه هو الموت، وكان أول طقس من طقوس **التحنيط** وإعادة الحياة إلى الميت فى ديانة المصريين، هو طقس سمى فتح الفم. والسحر **يؤمن** بقدرة النفث على إلحاق الضر. فقد جاء فى كلام الله : ﴿قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات فى العقد، ومن شر حاسد إذا حسد﴾ (سورة الفلق)، وإننا ما نزال نقول عمن يقع ضحية عمل سحرى إنه « اتنفس ».

ولكن لا شك فى أن تلك التعبيرات - مع أنها مؤسسة على السحر - تحتوى على عناصر تجريبية ربما أتت نتيجة لملاحظة واقعية، فإن الريح تحمل الأمراض لسخونتها أو برودتها أو رطوبتها أو لفعل الجراثيم والحشرات التى قد تحملها، كما أن نفس المرضى ينقل بعض الأمراض المعدية، وأن تعرض الجروح أو الأغذية للهواء يؤدى إلى تلوثها بالجراثيم.

٢ - عيوب التغذية :

والمجموعة الثانية من الأسباب التى ذكروها ترجع إلى عيوب التغذية. أى إما إلى عدم صلاحيتها وإما إلى الإفراط فيها. ومن الأمثلة التى ذكروها عن الشطط فى التغذية أكل الجميز غير الناضج واللحم المتعفن واللحم الذى زاد طهوه، وشرب الجعة الساخنة، والشرب مع أكل نوع من السمك.

أما احتساء الخمر فله أوصاف تصويرية جميلة : « إنك تجرى من حانة إلى أخرى ورائحة الجعة تفوح من فيك، إن الجعة تسيطر على الروح فيصبح المرء كالمجداف المكسور لا يمتثل إلى أمر، وكمصلى من دون إله، وكبيت دون خبز ».

وفى وصف تأثير الخمر قالت (قرطاسة إنسنجر) : « من ملأ نفسه بالنبيذ أقعده ألم الشَّعر فى مضجعه »، ومن الطريف أن الصداع الناجم عن احتساء الخمر يوصف أيضًا بالفرنسية بألم فى الشعر.

وإليك وصف واقعى لحالة السكر : «سقط إكليلك من رأسك حول رقبتك، إنك تزحف على بطنك، ثم تقف وتعاود الوقوع على بطنك، إنك ملطخ بالقاذورات». ويقابل هذا وصف رسم فى إحدى المقابر يمثل سيدة وقد ارتدت ثياب الحفلات، ووضعت على رأسها مخروط من العطر - كعادة المصريين فى المآدب والأعياد - وهى تتخلص مما أكلت وشربت.

ولا شك فى أن الإفراط فى الأكل والشرب كان شائعًا بين الأثرياء من المصريين، فقد وردت نصيحة فى (قرطاسة إبرس) بوجوب اجتناب الأكل قبل عودة الشهية وهى تذكرنا بما قاله النبى محمد ﷺ : «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع»، ومما ورد فى الأثر «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه».

ثم إننا نرى موائدهم مرسومة أو منقوشة على جدران مقابرهم وهى تزخر بطيبات الحياة، وكان بينهم طائفة من أولاد الحظ، أو هواة الاستمتاع الذين لا يحفلون إلا بالملذات، والذين قال عنهم هيرودوت إنهم يمررون عقب المآدب دمية من الخشب على صورة جثة ويقولون للمدعوين : «كلوا وامرحوا سوف تشبهون هذه بعد وفاتكم».

وكانت البدانة شائعة بين أثريائهم شيوعها بين أثرياء اليوم، وإن كانوا قد توخوا إبراز الرشاقة المصطنعة فيما نقشوا من رسوم، وهذا ما تناوله مقال آخر.

ومما يؤكد أنهم كانوا يعزون علة كثير من الأمراض إلى الإفراط فى الأكل أو إلى تعفن الأطعمة فى الأمعاء، أن هيرودوت ومن بعده (ديودور) الصقلى رويا أن المصريين اعتادوا تناول المسهلات والمقيئات ثلاثة أيام متوالية من كل شهر. كما أن ذكر الملينات والحقن الشرجية واللبوسات يتكرر فى أغلب وصفاتهم. ثم إن (قرطاسة شستر بيتى رقم ٦) بأكملها، وأجزاء كبيرة من (قرطاسى هرست وإبرس) لم تتناول سوى البواسير وأمراض الشرج، بل إن أحد مشاهير الأطباء حمل ضمن ألقابه «راعى شرج فرعون». وقد زعم بعض الرومان أن المصريين نسبوا اختراع الحقنة الشرجية إلى الإله (تحوت)، إذ إن - على حد قولهم - لا حظوا أن طير أبو منجل الذى يتجسم فيه هذا الإله يؤم الشاطئ كل يوم، ليملأ فاه بالماء، ثم يحقن شرجه بوساطة منقاره الطويل. ولا يخفى

ما فى هذه الرواية الساذجة من سوء فهم حقيقة معنى تمثيل المصريين لآلهتهم على شكل الحيوانات.

ترى هل نعجب لهذه النظرية القديمة، نحن الذين ننسب أمراضًا عدة إلى «عفونة» أو «وساخة» فى المعدة أو المصارين. ونقول إن «المعدة بيت الداء»، وكنا نحم إلى عهد قريب تناول شربة زيت الخروع بداية لكل أنواع العلاج حتى إذا بدت العلة بعيدة عن الأمعاء. وهنا يجدر الذكر أن (قرطاسة إبرمس) قد فردت فصلا كاملا للخروع فضلا عن أنه كان يذكر فى العديد من الوصفات.

هل نستغرب هذا وقد أسس السير (أربثنوت لين) الأستاذ الانجليزى ذائع الصيت نظريته المعروفة على تعليل المرض باحتجاز الغائط فى الأمعاء؟ الأمر الذى يترتب عليه ضرورة تسليك مجراها بالجراحة وقطع الالتصاقات التى تعوقها... إلخ من الإجراءات التى تكفل مرور الفضلات للتخلص منها. وقد غصت الجرائد بالإعلانات عن الملينات التى تنظف الجوف مما يرسب فيه من فضلات... وما تزال بلاد المياه المعدنية مثل: فيشى، وبلومبيير، وكارلسباد، تكتظ بالمرضى الذين يترددون عليها لشرب المياه المعدنية الملينة ولغسيل الأمعاء الغليظة بعشرات اللترات من مياهها.

الغائط

ونستنتج من اهتمامهم بمحتويات الأمعاء، أنهم كانوا يعدون الغائط سببًا مهمًا من مسببات الأمراض . ويبدو أنه كان فى نظرهم يسبب المرض، إما بانتقاله إلى غير مقره وإما بتعفنه.

ويرى (جرابو) أنهم كانوا يؤمنون بمبدأ يعدونه من المبادئ الأساسية لعلم الأمراض، وهو أن المواد أو السوائل التى تعد طبيعية فى مقرها، تصبح سامة إذا انتقلت إلى أنسجة أخرى، وهناك نصوص صريحة تؤكد أن المرض حدث نتيجة لانتقال الغائط من الأمعاء عن طريق الأوعية، وهذا ما سنعرض له فيما بعد.

ولكن فكرة الغائط أوسع من أن تنحصر فى المواد البرازية فحسب. فإن الغائط عند

الإغريق كان ينتج عن هضم الأغذية (Pepsis)، ولم يكن التعفن فى نظرهم إلا خطوة فى تلك العملية، فإذا ما اجتاز حدوده الطبيعية تحولت مادة الغائط إلى مواد غير طبيعية قد تسبب المرض، وهى شبيهة بالتى سماها (جالينوس)، (بريتوما Perittoma)[٨٨].

وقد ظن المصريون أيضًا أنها فى تلك الحال قد تتحول داخل البطن إلى ديدان، أو تسرى فى الأوعية فتتسرب عن طريقها إلى الأنسجة وترسب فيها، فتتحول إلى خراج أو ورم أو قرحة.

وهناك لفظة حار اللغويون فى تحديد معناها وإن اتفقوا على أنها تؤدى إجمالا معنى المادة المرضية أو الخلط المرضى، وهى لفظة «أخدو»[٨٩].

وهذا «الأخدو» كان مركزه حسب القراطيس فى الأمعاء، كما كان يصح أن يسرى فى الجسم فيسبب فيه شتى الأمراض فى جميع أجزائه، فتظهر ظواهره فى الأوعية والرأس والفم والأسنان وتجويف الصدر والقلب والبطن والشرج والأورام والقروح والخراريج. أما نشأة «الأخدو» فإن جزءا كبيرًا من مفكرى قدماء المصريين كانوا ينسبونه إلى التعفن المعوى كما أسلفنا.

وكان «الأخدو» يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمرض سموه «عاع» وقد حار المؤرخون فى تحديد هذا المرض وقال بعضهم إنه الأنكلستوما، وقال البعض الآخر إنه البلهارسيا. ولنا فيه رأى خاص.

العاع[٩٠]

لقد ذكر هذا المرض فى أربعة قراطيس: ٢٨ مرة فى (قرطاسة إيبرس)، ١٢ مرة فى (قرطاسة برلين)، ٩ مرات فى (قرطاسة هرست)، ومرة فى قرطاسة لندن. ويستخلص من الأوصاف الأكلينيكية التى ذكرت بصدده أنه كان مصحوبًا بانتفاخ معوى وبآلام فى البطن ودق ووخز وهروب فى القلب. وقد أضاف (إبل) إلى تلك الظواهر، الإفرازات الدموية التى قال عنها إنها من البول فى حين قال آخرون إنها من الغائط. وأكد أن العاع هو البلهارسيا.

وهذا القول الأخير بناه على اعتبارين:

الأول : أن سبب العاع دودة اسمها «حررت»، والنص الذى يبرر **هذا القـول ورد** فى وصفة واحدة من الوصفات الخمسين التى تناولت العاع وهى **(وصفة إبراز رقم ٦٢)** التى تنتهى بالعبارة الآتية : «يتناولها الذين توجد فى بطنهم دودة (حررت) **إن العـاع هـو** العلة». ومعنى هذا جلى وهو أن العاع المحـرك الأول لـظهور الـديدان وليس نتيجـة وجودها وهذا النص كما أسلفنا هو المرجع الوحيد عن صلة العاع بالديدان.

الثانى : اصطحاب العاع بالإفرازات الدموية : وهذه الفكرة استنبطها (إبـل) مـن (قرطاسة لندن) حيث جاءت «تعزيمة» ضد العاع بـين تعـويذتين المقصـود بهما الأنـزفة، فاستنتج أن المقصود بها أيضًا علاج نزف وإن لم يجئ بها ذكر هـذا العـارض ثم ذهـب إلى القول بأن هذا النزف المزعوم لا بد وأن يكون منبعه البول، إذ إن الوصفة تسبقها أخرى لنزف من الشرج وتلحق بها ثالثة لنزف من الرحم. وهـذا الاسـتنتاج المزدوج - وأقل وصف له هو أنه جرىء - يدعمه بحجتين :

أولاهما : إلحاق كلمة عاع بمخصص هو الرمز الهيروغليفى للذكر.

وثانيتهما : وجوب تلاوة التعزيمة المذكورة على كعكة على شكل ذكر تعـطى بعـدئذ لقط ليأكلها.

ومع ذلك، فهناك وصفات كثيرة فى القراطيس المختلفة تذكر صراحة دموية البـول ولم ترد بها لفظة عاع مرة واحدة.

ولنا أن نشك فى أن يكون المصريون قد فطنوا إلى وجود دودة البلهارسيا وهى تختبئ فى الوريد البابى ويصيبها التحلل خلال أربعة وعشرين ساعة مـن الـوفاة. وقـد تسـاءل (جرابو) : «كيف كان المصريون يقدرون على اكتشاف هـذه الـدودة المتنـاهية الصـغر وما الذى كان يوحى إليهم إسناد البول الدموى إلى تلك الدودة».. ؟

إن النصوص تنسب العاع إلى الأرواح الشريرة التى اعتاد الطب المصرى اتهامها : إله أو ميت أو ميته. فإنها كثيرًا ما تتحدث عن «عاع ميت فى البطن»، أو تـوصى بـأدوية لإبعاد «سحر إله وعاع إله وسم ميت»، كأن العاع هو المؤثـر الـكامن الـذى يعمـل بطريقة خفية وليس هو السبب المباشر ، أى على حد قول (جرابو) : «إنه (أى العـاع) ليس بمرض بقدر كونه مادة مرض وضعها الشياطين فى البطن».

obeikandi.com

أما عن صلة العاع «بالأخدو» فإن النصوص تقول: «لقتل (الأخدو) وإبعاد «العاع» أو «إبعاد العاع وقتل الأخدو».... الأمر الذى يشير إلى أن العاع الذى يجب استبعاده ليس بالعامل المباشر للمرض، وإنما هو المحرك الأصلى الذى يسبب المرض عن طريق (الأخدو)، هذا (الأخدو) الذى كان يجب قتله للإبراء.

وإن صح أن العاع سببه الديدان، وإن صح كذلك أن الإفرازات الدموية تصحب هذا المرض، فإن لدينا تفسيرًا لذلك: إن أطباء الغرب يرون فى أمراض البلاد الحارة أمراضًا فردية، فلا غرابة إذن أن يفكروا فى (العاع) على أنه إما الأنكلستوما وإما البلهارسيا. ولكننا فى مصر قلما نرى تلك الأمراض منفردة، بل نواجه كل يوم وخاصة فى المستشفيات المختصة - كشكولا من تلك الإصابات، وقد أكدت أبحاث زميلى الأستاذ الدكتور حسين فؤاد نجاتى أن نسبة المصابين بأكثر من طفيلية واحدة بين جملة المصابين تربو فى الدلتا على ٩٠ فى المائة، ولذا فإننا لا نستغرب أن يكون ما أطلقوا عليه اسم العاع ليس إلا مجموعة ظواهر من عدة طفيليات، مثل الأنكلستوما والبلهارسيا والأسكارس والديدان الأخرى، التى اعتادت التحالف فى جسم المريض الواحد. ربما شاهد المصريون إذن - فى الحالات المصابة بالبلهارسيا الخبيثة فى الأوردة - ديدانًا مرئية مثل الأسكارس أو الأنكلستوما، ولم يميزوا بين الأثنين، فعرفوا العاع بأنه عنصر خارجى يدخل الجسم فيتسبب عنه «الأخدو» الذى قد يظهر فى البراز على شكل ديدان أو فى الجسم على شكل مرض.

وهناك تفسير آخر لربط المصريين العاع بالديدان - إذا قبلنا جدلا أن العاع هو البول الدموى - وهو احتمال ملاحظتهم جلطًا دموية على شكل ديدان، مثل التى تظهر فى البول فى حالات البلهارسيا، وعدهم تلك الجلط ديدانًا. وما يدعم هذه الفكرة أنهم - فى قرطاسة سميث - نصحوا بتنظيف داخل الأنف من الديدان الموجودة به فى حالات كسور عظمته. وفسروا الديدان فى الهامش لهذا النص بأنها خيوط من الدم المتجلط.

الديدان: هى ثالث سبب نعرض له... وللديدان تاريخ طويل فى النظرة الشعبية للأمراض، ربما يكون قد نشأ من مشاهدة الدود فى كل شىء - عضويًا كان أو غير عضوى - يصيبه التحلل والتعفن، فإن الخشب يصاب بالسوس والجروح يدخلها

الدود، والجثث المنحلة تأكلها الديدان. ولا شك فى أن هذه الملاحظة لعبت دورًا هامًا فى تكوين فكرة المصريين عن المرض. فإن الجثث فى نظرهم كانت تحيى عندما يعود إليها (با) أى الروح... ومن ثم ضرورة الاحتفاظ بكيانها وبشكلها الخارجى حتى يتعرف عليها ال (با) عند عودته. ولذا فإن تحلل المومياء كان ينظر إليه على أنه أبشع الأمراض، لأنه يؤدى إلى وفاة شر من الأولى من حيث إنها فى هذه الحالة نهائية ولا تترك للروح بعدها إلى العودة إلى الجسم سبيلا. فتظل الروح إلى الأبد حائرة دون مأوى، وكانت الديدان سبب هذا المرض أو « التحلل ».

ومهما يكن أصل التفكير فى نسبة المرض إلى الديدان، فإننا نراه شائعًا بين الشعوب. فقد جاء فى (قرطاسة أنسطاس) أن تسوس الأسنان سببه الديدان، ونحن ما نزال نسمى تآكل الأسنان « السوس »، كما نطلق هذا الاسم على التهابات العظام المزمنة، درنية كانت أو غير درنية. وجاءت وصفة فى (قرطاسة إبرس) نقلتها أيضا (قرطاسة هرست) يقصد بها علاج الديدان الموجودة فى الأصابع، الأمر الذى يجعلنا نتساءل : أكان المقصود الداحس، أم الشرانق التى تصيب أحيانا الجروح المتقيحة.

ومن الطريف فى شأن الداحس أنه يسمى فى ألمانيا الشرقية (Nagelwurm)، أى دودة الظفر، وأن لفظ داحس مشتق من الأصل الثلاثى الذى اشتقت منه لفظة أخرى هى الدحاس، وهو اسم نوع من الديدان يعيش تحت الأرض.

آمن الآشوريون كذلك بنسبة المرض إلى الديدان، فقد ورد النص الآتى فى تعويذة آشورية : « بعدما خلق أنو السماء، خلقت السماء الأرض، وخلقت الأرض الأنهر، والأنهر القنوات، والقنوات البركة، والبركة الدودة، ومثلت الدودة أمام شاماش وأمام أيا باكية سائلة : « أى غذاء عينته لى لآكله، ما الذى سأفتته ؟ فأجاب الإله سأعطيك تينا جافًا ومشمشًا - وما التين والمشمش بالنسبة لى ؟ ضعنى بين الأسنان، دعنى أعشش فى اللثة فأمتص دم الإنسان وأمضغ نخاع اللثة، هكذا سأمسك مزلاج الباب ». وكانت تلك التعزيمة تقرأ ثلاث مرات وكانت تخلط الجعة بزيت وبنبات خاص، ثم توضع على اللثة.

وهناك تعويذة غريبة على ظهر (قرطاسة إدوين سميث) وهو الجزء السحرى منها وقد تشير إلى نسبة المرض إلى حشرات تدخل الجسم عن طريق الفم : « تعويذة لرجل ابتلع

ذبابة: «إن فاه نق مثل فم العجل الوليد لتوه الذى لم يدخل جسمه طعام، إن الحشرة التى ابتلعها ستخرج منه حية وستقع منه كالفضلة دون أن تؤذى بطنه». والظاهر أن العجل الوليد الذى لم يأكل بعد كان فى نظرهم غاية فى الطهارة، فقد ورد التشبيه ذاته فى نصوص الأهرام: «إن أوناس طاهر كالعجل الوليد الذى لم يرضع من أمه».

المسببات غير المرئية

تلك هى إذن المسببات المرئية للأمراض غير الجراحية التى وردت فى القراطيس، وهى خلل التغذية والهواء والديدان. أما إذا كانت المسببات غير ظاهرة فكان يتحتم على المصريين نسبتها إلى عناصر خفية طبقا لنظرتهم المنطقية للمرض - وكان طبيعيا فى ذلك العهد من التاريخ البشرى أن تكون بعض تلك العناصر روحانية، كغضب الآلهة، أو انتقام الموتى، أو فعل الأعداء.

ولم تكن نسبة الأمراض إلى تلك الأرواح تبدو غريبة على الطبيب. ولم تكن من تلك الأمور التى ينفرد بها الساحر، فقد كانت الأمراض الخارجية والأمراض الروحانية موضوعين من موضوعات علم الأمراض، شأنها فى ذلك شأن الالتهابات والأورام، أو الأمراض العضوية والأمراض النفسية فى الطب الحديث، فكان الطبيب إذا ما اقتنع بأن مرضًا ما ليس من الأمراض العضوية، أحال المريض على زميله الساحر، كما يحيل الباطنى اليوم من به التهاب فى الزائدة الدودية إلى الجراح. وقد وردت أمثلة عدة لهذا التمييز. مثل رواية أميرة بختان التى أرسل إليها رمسيس عالمًا من علماء مصر لعيادتها فقال هذا العالم: «إنى لا أقدر على هذا المرض، استنجدوا بمن هو أقوى منى، الإله خونسو، إنه أقوى منى». وقد فعلوا فشفيت الأميرة. فلا يدهشنا إذن أن نرى بعض الأطباء وقد حملوا ألقابًا تجمع بين الطب والسحر مثل: نى عنخ رع الذى كان مفتش الأطباء وكاهن الإلهة سخمت ورئيس السحرة.

ومما يشير أيضًا إلى هذا التمييز تباين نسبة التعازيم فى القراطيس المختلفة فإن (كتاب الجروح) لا يحوى إلا تعزيمة واحدة من بين ٤٨ وصفة، (وقرطاسة إبرس) لم يحو بها

إلا ١٢ تعزيمة من بين ٨٧٧ وصفة على حين أن (قرطاسة برلين) تزخر بها، **(وقرطاسة لندن)** أكثر شبهًا بكتاب رقى منها بمؤلف طبي. ويرجع هذا التباين - فى الغالب - **إلى** تباين ورقات البردى المتناثرة التى وصلت إلى ناسخى تلك المصنفات.

ونجد أيضًا ما يؤكد هذا الرأى فيما نراه من اختلاف بصدد علاج من أصيب بعضة من إنسان أو أسد أو فرس البحر أو تمساح من جهة ، ومن أصيب بلدغة ثعبان أو عقرب من ناحية أخرى. فإن الأولى عولجت فى القراطيس الطبية بالعقاقير والمراهم، والثانية لم تكد تتناولها إلا القراطيس والنصوص السحرية مثل (نص حجرة مترنخ) أو (قرطاسة لندن) التى لم تعالجها إلا بالرقى والتوسلات.

ومن الأمثلة الأخرى لهذا التمييز، الطريقة التى بها وزعت وصفات علاج الأذنين فى (قرطاسة برلين)، حيث وردت ست وصفات فى جزئين متباعدين منها : أربع فى جزء أوصت باستعمال الأدوية الطبية، واثنتان فى جزء آخر لعلاج ظواهر نفسية مرتبطة بالأذنين عن طريق مواد مثل روث التمساح، وذنب العقرب، وهى أقرب إلى السحر منها إلى الطب.

وكان للأرواح المؤذية رئيس يستقبلها فى الجسم ويوجهها، كانوا يسمونه (الواشى) أو النمام. ومن الطريف أن لفظتى (Devil) الإنجليزية و (Diable) الفرنسية ومعناها «الشيطان» مشتقتان من (Diabolos) الإغريقية ومعناها أيضا (الواشى) أو (النمام). وكانت تلك الأرواح تتسلل إلى المنازل وتختبئ فى الأركان، الأمر الذى كان يستوجب إحكام إغلاق النوافذ والأبواب ووضع التعاويذ عليها لمنع هذا التسلل.

وفضلا عن الأرواح الشريرة، فإن الآلهة الخيرة كانت ترسل الأمراض أحيانًا عقابًا على العصيان، وهكذا نجد أن أبشع ورم وصفوه كان ورم الإله خونسو الذى كثيرًا ما كان يوصف أيضًا بالإله الشافى، وفى هذه الحال كان يتعين - فى التماس الشفاء - اللجوء إلى الإله ذاته الذى سبب المرض لا سترضائه.

ثم إن المصريين لم يهملوا الأسباب النفسية، فقد جاء وصف الحزن، والحنين إلى الوطن، والحب، فى قصائد هى أبلغ ما تكون شاعرية. لنصغ إلى ما قيل عن مرض «ساتنى خامويس» : «تدثر بثيابه واضطجع وهو لا يدرى له مستقرًا. فوضعت زوجته

يدها تحت ثيابه وقالت: يا أخى ليس بك حمى، وأعضاؤك مرنة، إنه حزن فى قلبك».

ولندع المغترب يصف تشوقه إلى العودة إلى دياره: «ألا ترى الطيور المهاجرة تعود أدراجها إلى مصر... ؟ إلى متى سأظل نائيًا عنها... ؟». وهاكم وصفًا آخر: «ليرضى عنى (بتاح) فيعود بى إلى منف... ضعفت عيناى...

وهناك صورة قاتمة لليأس من الحياة: «إن الموت أمامى كالصحة للعليل... كرائحة اللوتس... كالحنين إلى دارى بعد الأيام التى قضيتها فى المعتقل».

أما المحبون فإنهم يسخرون من الطب والأطباء: «إن قدوم المحبوبة أنجع من الدواء وأجدى من الموسوعات الطبية»، أو: «سأعتكف بالدار وسوف يدخل على الجيران للزيارة، ومعهم من أحبها وسيزرى سحرها بنطس الأطباء لأنها هى التى تعرف دائى».

إلا أنهم لم يكتفوا بتفسير الأمراض العصبية بالعوامل النفسية أو الروحانية، فقد جاء فى (قرطاسة كاهون) وصف ظواهر عصبية من تلك التى ننسبها إلى الهستريا، نسبوها هم إلى اضطرابات الرحم أو انتقاله من موضعه: نجد هنا أيضًا ما يذكرنا بالإغريق إذ إن كلمة هستريا مشتقة من (هستر) وهو الاسم الإغريق للرحم.

سلوك المرض فى الجسم

والآن وقد عرضنا لمسببات الأمراض، يجدر بنا أن نتطرق إلى السبيل الذى كانت تلك المسببات تطرقه داخل الجسم المريض والذى يمكن تقسيمة إلى ثلاث مراحل:

١ - الدخول إليه.

٢ - الانتشار فيه.

٣ - الخروج منه فى حالة الإبراء.

أما دخولها فكان حسب نصوص عدة يتم عن طريق الفتحات الطبيعية الموجودة فى الجسم: كالفم والأنف والأذن، أو عن طريق أفواه افترضوا وجودها فى الأوعية، تستقبل

فيها الأمراض أو تطردها عنها، وقالوا إن انتشارها يتحقق عن طريق الأوعية، وأن التخلص منها يتم كذلك إما عن طريق بعض الفتحات الطبيعية للجسم كالشرج أو البول، وإما عن طريق فتحات الأوعية المزعومة، غير أن أغلب العبارات التى تصف الدخول أو الخروج عن طريق تلك الأوعية وردت فى قراطيس سحرية، وإذن فيمكن الظن بأنها كانت تؤخذ بمعناها المجازى فقط.

الميتو :

ونحن فى استعمالنا لفظة «الميتو» إنما نحاكى الغربيين الذين ترجموا بها لفظة (ميتو) المصرية غير أن تلك الكلمة المصرية. أطلقت على عناصر تشريحية مختلفة، تشمل الأوعية والقنوات والأعصاب والأوتار، وما إليها فى الطول والرفع والصلابة، كما يطلق الشعب اليوم كلمة (عرق) على الأعصاب والأوتار وغيرها من العناصر حتى القرون الوسطى. ولذا قال المؤرخون إن المصريين لم يميزوا بعضها عن البعض الآخر. وأخذوا عليهم أن (كتاب الأوعية) الوارد فى (قراطيس إبرس، وبرلين، وأدوين سميث)، ذكر فى مكان ما أن عدد الميتو ٢٢، وقال فى مكان آخر إن عددها ٤٦، واستدلوا بذلك على خلط عجيب فى معلوماتهم التشريحية. إلا أن التحليل اللغوى لهذا الكتاب أثبت أنه مكون من مؤلفين مختلفين، وأن الخلط إنما حدث عن نسخ الناسخ، فقد وصلت إليه من الكتابين صحائف متناثرة غير مرقمة فنقلها تباعًا وفق الترتيب الذى وردت به إليه.

أما هذا الاختلاف فى العدد فمرده إلى أن أول كتاب - وهو الذى ذكر ٢٢ (ميتو) - قد قصر على الوصف التشريحى فى حين أن الآخر قد احتوى تأملات نظرية فى وظائف الأعضاء فذكر كل ما يعرفه من الأوتار والأعصاب والشرايين والأورده والقنوات. ولعل أقوى برهان على ذلك قوله : إن لكل من الكبد والمثانة أربعة (ميتو) تنقل الدم والغائط، وهذا خطأ إذا قصدنا بالميتو الشرايين فحسب، ولكن المصرى لم يعرف شكل هذين العضوين إلا بعد نزعهما من الجثة، فرأى أربع قنوات متصلة بالمثانة هى الشريانان والحالبان. أما قوله إن الميتو يحمل الغائط فقد يرجع إلى أن قناة الصفراء تحمل الصفراء وهى سريعة التعفن بعد الوفاة وتتصل بالاثنى العشر الملىء بفضلات الطعام.

نظروا إذن إلى الميتو على أنه شبكة مواصلات ورى واسعة، تتخلل الجسم فتوزع

فيه الدم والماء والهواء والإفرازات المختلفة كالدموع والمنى، وتنقل الغائط والأمراض. ولم يقصروا تلك النظرة على الأمراض المادية، بل ظنوا أن الأمراض الروحانية التى تسببها الآلهة والأعداء والموتى والأرواح الشريرة تنتشر كذلك عن طريق شبكتها، كأنهم أضفوا على تلك العوامل المجردة صفة مادية واقعية، ورأوها تنتقل من جهة إلى أخرى ومن عضو إلى آخر فتسبب الخراريج والأورام والأمراض العامة، ويتحتم التخلص منها بالمفرغات كالشرب والمقيئات.

العناصر المرضية السارية فى الجسم

وتلك العناصر السارية فى الجسم والمسببة للمرض كانت فى نظرهم متعددة، ناقشنا أحدها وهو (الأخدو).

ولنعرض الآن للسبب الثانى، ذلك الذى أطلقوا عليه لفظة (ستيت) التى ترجمها (جرابو) بالمخاط، والتى رأى (إبل) أنها تقابل فكرة البلغم التى أخذ بها الإغريق والعرب، والبلغم هذا أحد الأخلاط اليونانية الأصل، التى سادت الفكر الطبى حتى القرن التاسع عشر.

ولفظة (ستيت) أطلقوها على مادة سائلة تجرى فى الجسم، وقد يصيبها التعفن فإذا وصلت إلى عضو أحدثت فيه المرض، وقد تتحول فى الأمعاء إلى ديدان. أما الأمراض التى ذكرت ضمن ماتحدثه من خلل، فهى تشابه الأمراض التى كانت تحدث نتيجة للبلغم فى نظر الإغريق. على أن الكلمة ذاتها استعملت أيضًا بمعنى الروماتزم، ولذا يعتقد (إبل) أنها كانت تطلق أيضًا على كل معانى لفظة (روما) اليونانية (ومنها روماتزم)، إذ إن المصريين فى رأى الكاتب نفسه كانوا لا يفرقون بين الخلط المرضى والمرض ذاته.

أما العنصر الثالث فهو ما سموه (رووث) الذى قد يقابل فكرة خلط آخر من الأخلاط الأربعة هو المرارة.

الإبراء

كانت تلك المواد تسرى فى الجسم وتسبب المرض الذى كان ينتهى إما بالوفاة أو بالإبراء، وكان الإبراء يصورونه على صورة خروج المرض من الجسم خروجًا فعليًا، إذ إن المصريين كانوا يتخيلون سير المرض - كما أسلفنا - على شكل مادى حتى وإن كان روحانيًا، فكان المرض يغادر الجسم عن طريق إحدى الفضلات أو الإفرازات، أى الغائط والبول والقيء والعرق والمخاط، ولا شك فى أن تلك الصورة لخروج المرض تشبه تمامًا التفريغات البحرانية التى وصفها (أبقراط) والعرب من بعده.

الاختلافات الكمية فى الدم

لم تقتصر الأسباب فى نظر المصريين على وجود مواد أو عناصر مرضية سارية فى الدم، إذ أنهم قالوا أيضًا إن المرض يحدث، لا عن تغيير الدم من حيث الكيف. إنما قد ينجم كذلك عن اختلاف من حيث الكم، أى عن قلة أو غزارة غير طبيعيتين.

وتشير نصوص عديدة إلى أن المرض هو أن (القلب لا يتكلم فى الأعضاء). ولعلهم بهذا قد عبروا عما يحدث عندما تنسد الشرايين إما بتجلط الدم فيها أو بضيق يصيبها نتيجة لتصلب جدرانها أو تقلص عضلاتها. وهذا يدعو إلى التعجب، إذ أن (أبقراط) قال فى (المرضى الإلهى) أى الصرع : «إن البلغم فى الأوردة يعترض الهواء فلا يصل هذا الأخير إلى المخ أو الأوردة[١٢٥]»

وكذلك كانت زيادة الدم فى الأوعية أو الرئتين أو القلب فى نظرهم تسبب المرض. أفلا يذكرنا هذا بنظرية إغريقية يمكن ترجمتها بامتلاء الدم أو بالاكتظاظ (Plethora)؟ وقد أشار سيجرست[٩١] ومارق - إيبانيير[٩٢]، إلى أن فكرة القنوات الموصلة للحيوية

والصحة، فكرة طبيعية عند شعب اعتمد على رى أراضيه، وقاسى من قحط نهره أو إفراط فيضه، فشق القنوات وشيد السدود لتنظيم مياهه، وهذا مثال جيد لتأثير محيط قوم الجغرافى على فلسفته، ولكن، إذا صح هذا فى مصر، فما بالك بأهل (بين النهرين) الذين وهبوا الرافدين، وشققوا، أرضهم - مثل المصريين - بشبكة من القنوات، دون أن يهدوا إلى فكرة الأوعية، لاتجاههم الروحانى البحت فى التفكير.

علاقة الطب المصرى بنظرية الاخلاط

إن هذه الآراء الخاصة بانتشار الأمراض والتخلص منها عن طريق الإفرازات والفضلات تدعونا إلى التساؤل: هل يحق لنا أن ننسب إلى المصريين نظرية الأخلاط التى طالما نسبت إلى الإغريق؟

قال الإغريق إن الجسم مكون من أربعة أخلاط هم الدم والبلغم والصفراء والسوداء. وقالوا إن توازنهم أساس الصحة وإن طغيان أحدهم على الآخرين أساس المرض، وإن طبائع الإنسان بالمثل أربع، تبعًا لسيطرة أحد الأخلاط على الاخر، فوصفوا المزاج الدموى الذى يغلب فيه الدم والصفراوى والسوداوى والبلغمى. وقالوا أيضًا إن المرض يحدث لغلبة أحد الأخلاط، وأن علاجه يتم بالتخلص من الخلط الزائد لإعادة التوازن، كما قالوا إن الخلط الزائد يغادر الجسم فى الغائط أو البول أو العرق أو الخراج عند البرء من المرض، فهل فيما رأيناه ما يبرر إسناد تلك الآراء إلى المصريين؟

هنا يجب أن نلاحظ أن نظرية الأخلاط الأربعة لم تكن وليدة الملاحظة والاختبار. بل أتت على العكس نتيجة لتأملات الفيلسوف (أنبا دقليس) المجردة التى بنت الكون على أربعة عناصر هى: الأرض والهواء والنار والماء، ولنظريات (فيثاغورس) الخاصة بخواص رقم ٤ الذى عده رقمًا كاملا. إلا أن فيثاغورس قد تتلمذ مدة طويلة على كهنة المعابد المصرية، وأن المصريين وصفوا فى كتبهم السرية أركان الكون الأربعة وإن كانت تلك النصوص ترجع إلى حقبة متأخرة من تاريخهم.

ولكننا، لئن ذهبنا حتى إلى حسبان الماء والهواء والدم والمواد الأخرى، التى قالوا إن

الميتو تنقلها، مساوية للأخلاط، وحتى إذا أخذنا بأن ألفاظ (أخذو) و (ستيت) وما إليها تقابل الأخلاط المرضية، فما أكثر الفرق بين تلك النظريات وبين نظرية الإغريق، إذ أن الأخلاط - فى نظر أبقراط وغيره - هى مقومات الجسم الطبيعية، التى تقوم عليها الصحة إذا ما وجدت بنسبها الطبيعة، بيد أن الأخدو والستيت.. إلخ، تبدو عوامل مرضية بحتة، ولم يرد البتة مايفيد بأنها من أركان الجسم الصحيح.

ولذا فإن صح القول جدلا بأن نظرية الأخلاط كما وردت فى كتابات الإغريق، أسست على ملاحظات واقعية تناولت العرق أو الإسهال البحرانى، أو تأثير اختلالات الدورة الدموية فى الجسم، وعلى تأملات بنيت عليها، فإنها مع ذلك لم تزدهر وتأخذ شكلها الأخير إلا بعد تطور طويل على ضوء النظريات الحسابية والكونية التى ابتدعها (أنبا دقليس، والقمايون، وفيثاغورس) وغيرهم من الفلاسفة الإغريق.

وختامًا لربما قال قائل إن النظريات التى أسلفت بيانها لا تربو على الأفكار الشعبية الحالية فى المرض. وفى هذا القول حقيقة عميقة. فإنها جميعًا مستمدة من منبع واحد هو منطق سببى ينبع عن فرض روابط سببية بين حدثين يتعاقبان فى الزمن؛ غير أن هذا المنطق فى ذاك الزمن كان ينقصه محك التجربة، التى لم يكن لهم إليها من سبيل. وبما أن تلك الأفكار تولدت عن التفكير الطبيعى للإنسان فإنها كانت القاعدة الحتمية التى بنى عليها اللاحقون تجاربهم وأفكارهم فانطلقت منها العلوم الحديثة.

ولكنى - حين أعبر عن التأملات التى أثارتها فى نفسى تلاوة النصوص الهيروغليفية المترجمة - إنما أتوخى الحيطة الشديدة لأن من يشغف بالبحث فى العلوم المصرية القديمة يجد نفسه فى بحر خضم من الصعوبات اللغوية.

وبالإضافة فإن ما وصلنا عن قدماء المصريين قليل، ونحن ما ننفك نأمل أن تكشف أرضنا الغيورة يومًا ما عن مزيد من تلك المعلومات التى تكتنزها والتى تضن علينا منها بالكثير.

ومن يدرى، فربما أتاح لنا حسن الطالع أن نشهد يومًا تكشف فيه مدرسة من تلك المدارس التى كانت تسمى (بيوت الحياة)، وحينئذ سيقدر لنا أن نقف على حقيقة علم

المصريين الذين بلغوا بلا ريب شأوًا كبيرًا فى الطب، ولو أننا لا نرى منه اليوم إلا جزءًا ضئيلا من خلال ثقب ضيق، الأمر الذى يجعلنا نعمد كثيرًا إلى الفرض والتخمين، ولعلّى لم أتجاوز فيما قدمت الحدود التى يمكن أن يقرها العقل وأن يقبلها الذوق السليم.

obeikandl.com

(شكل١٣-١)ظهر كاهن مكسيكى ارتدى جلد إنسان مسلوخ ويمثل
آله المسلوخين كسيبى توتك (حضارة الاستيكاس ١٣٢٤-١٥٢١م)

obeikandl.com

(شكل ١٣-٢) تمثال لشخص فى وضع الضحايا التى كانت تفتح صدورهم لانتزاع قلوبهم

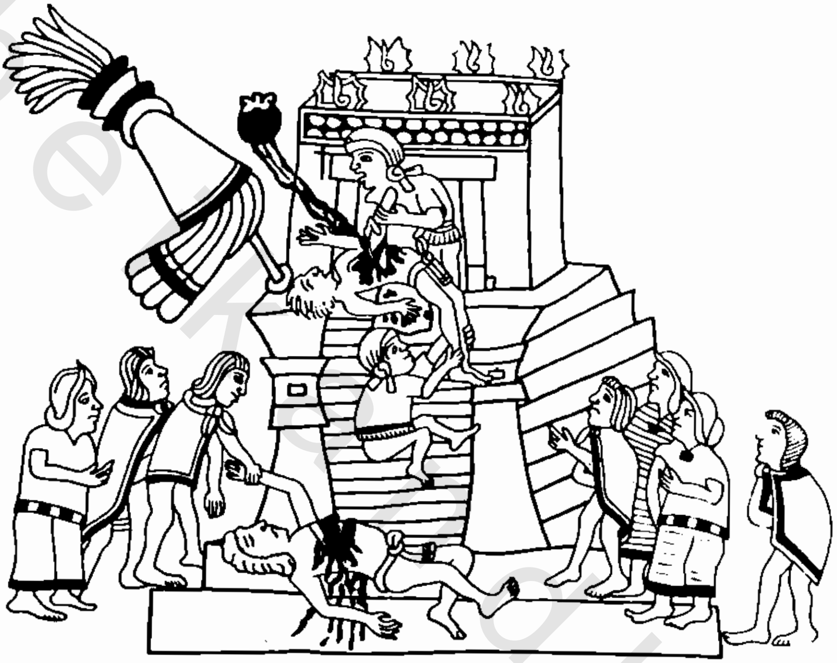

(شكل١٣-٣) مثال لقسوة الأستيكاس يمثل تضحية الأسرى وتقديمهم قرابين للآلهة.
إلى أعلى: يشق كاهن صدر أسير حى لينتزع قلبه وقد ظهر القلب صاعدا إلى السماء.
إلى أسفل: طح الأسير بعد تضحيته وقد روى أن عدد الضحايا فى بعض المواسم كان يربى على ٢٠,٠٠٠ وكانت الحروب تخاض لمجرد الحصول عليهم.

obeikandl.com

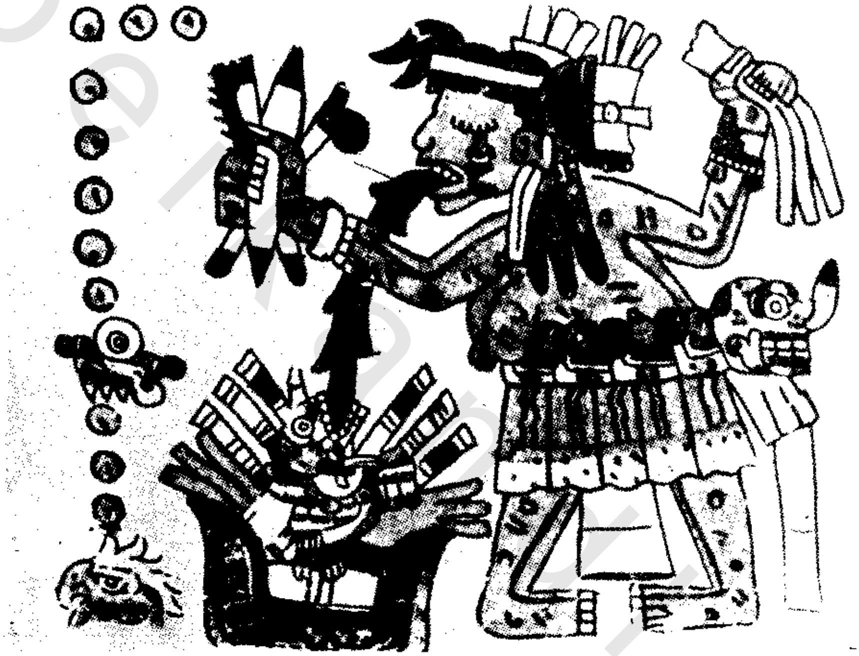

(شكل١٣-٤) من خير الصور لنظرة الاستكاس إلى الحياة هذا الرسم المأخوذ من (كودكس الفاتيكان ب) لآلهة الصرع فى خلال نوبة صرع تشنجت قدماها إلى الداخل وفاض الدم من فمها فغمر طفلا فى مضجعه. وسال دمها وانتشرت القروح والبثور على جسمها وزين حزامها. بجمجمة بشرية.

obeikandl.com

(شكل ١٣-٥) تمثال لمصاب بتآكل الأنف والشفة ويرجح أنه نجم عن اللشمانيا

obeikandl.com

(شكل ١٣-٦) جمجمة أجريت لها تربنة

(شكل ١٣-٧) إناء يعتليه تمثال لشخص يجرى عملية التربنة على شخص آخر